الهوية الآسنة واللسان الواهي

(اللغة العربية بين موازين القوى)

الأستاذ الدكتور/ عبد القادر فيدوح . جامعة قطر

1. خرق اللغة العربية/ الروافد الملتبسة

تثير إشكالية اللغة العربية فى مجتمعاتنا العربية، بين معظم لغات العالم الحية، حيزا ممحلاً من الجدل حول إمكانية وجود علاقة اللغة العربية بالنشاط الإبداعي/العلمي، فى وقت تحتاج فيه الأمة العربية بوجه عام إلى الدخول فى خانة الإبداع الكشفي، التكنولوجي، والإسهام فى صناعة التحديث الحضاري المنسجم مع مساعي الألفية الثالثة. وإذا كان ذلك كذلك فهل يمكن أن تسهم اللغة العربية فى البناء الاجتماعي للأمة العربية فى الألفية الثالثة؟ ثم كيف تحافظ مؤسسات المجتمع المدني على اللغة بوصفها عملة متداولة بين مجتمعنا؟ وقد يكون أجدى فى هذا المقام أن نبحث عن أي المبادئ والقيم التي تجعل من اللغة العربية لغة معارف علمية؟ وقبل ذلك كيف نحافظ على هذه اللغة الرصينة فى بيانها؟ وكيف ندفع بها إلى مواكبة العصر؟

إن تنمية القدرة اللغوية فى أبسط أداء لها، هي تحسين مستوى التعبير، بصورة مبدئية. ولعلنا ندرك خطورة هذه البداهة عندما نستشف محصلة اللغة التداولية بين شبابنا وهو خالٍ، وأجوف من أي رصيد لغوي سليم.

وبالنظر إلى لكنة القول، وعجمة اللسان، التي استبدلت بها سلامة اللغة . على الأقل . فى وضوح نطقها فى العهد القريب جدا، فإن ما يروج له من تداول لفظي فى لحن القول وتلكؤ اللسان لا يُظهِر ما يُخفي صدر القائل لعجزه عن التعبير عن مكنوناته، ولعل فى تأنق كلام بعض إعلاميينا على مساحة وسائل الإعلام المتعددة . وغيرها كثير . ما يفسر مقتهم للغة العربية، وكأن البغضاء تبدو من ألسنتهم؛ الأمر الذي انعكس سلبا على جيلنا المتخذ من مسئولين، ومثقفينا، وإعلاميينا، قدوة بالنظر إلى لسان واقع الحال.

ويعد الحديث عن اللغة العربية بما هي عليه فى واقع الحال، سابقة وخيمة ينبغي تداركها، وهي ظاهرة لم تشهدها ثقلفتنا العربية حتى إبّان الاحتلال الذي حاول طمس أثر اللغة العربية من ذاكرة الهوية.

وإذا كانت اللغة العربية فى السنوات الأخيرة تشهد تراجعا مثيرا ولافتا، نظرا إلى حدة خطورته، فإننا نخشى أن يمتد هذا التراجع ليصبح مرضا . لسانيا . مزمنا يصعب علاجه. ولعل سبب تخوفنا يكمن فى الفزع من التأثير السلبي على صياغة أفكار جيلنا الواعد وسلوكه المعرفي والأخلاقي، ومن أجل ذلك يفترض أن يكون لدى مسئولينا المبادرة فى اتخاذ ما يلزم بغرض التصدي لهذا الهاجس المرعب والمخيف على مكونات ثقافتنا وهويتنا.

وفى اعتقاد الكثير من الباحثين التربويين، ومنظري المعارف والعلوم، أن أي شخص لا يمكنه أن يرتقي من نقص فى المهارة التعبيرية، والتوسع والتمكن منها، إلا بالوصول إلى مطلوب اللغة، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن تشخيص اللغة لدى الفرد يكمن فى توسع بُعد النظر، ومحو المجهول، وتثبيت المعلوم، وتقريب المقصود، بسرعة يصعب فيها على غير المتعلم أو المتمكن من الكفاية اللغوية إدراك الأشياء، ومن ثم يسهل على المتعلم كشف الحقائق والتعبير عنها بيسر؛ الأمر الذي يسهم فى نمو معارفه وأفكاره فى الحياة العملية والعلمية.

كما أن الكفايات اللغوية تعدّ حصانة لحسن الطوّية، وضمانا من أي ضرر يهدد المجتمع ويخل بالأمن الفكري . على وجه التحديد . بوصفه لبّ الجوانب الأمنية الأخرى، وخالصها، وخيارها فى شتى المجالات، سواء منها الثقافية أو الاجتماعية، أو السياسية، أو الاقتصادية، إلى غير ذلك من دعائم المؤسسات الاجتماعية وسندها القوي.

ومن هذا المنظور يكون من باب أولى الوقوف بحزم أمام تفشي ظاهرة لغة الشارع الهابطة التي تشيع فى أوساط شريحة عريضة من مجتمعنا، حتى باتت تدخل الأوساط الرسمية، سواء عبر وسائل الإعلام، أو فى المحافل الرسمية. وقد يكون من تفشي هذه الظاهرة الغريبة . سواء عن قصد أو عن غير قصد . هو إفساد ذوق اللغة المعهود، بفعل سياقاتها المنحرفة التي يتكلم بها شبابنا برطانة، وبلهجة ملتوية قد يصعب فهمها أحيانا حتى فى المنطقة نفسها، كونها مركبة من معظم اللغات. كل ذلك من شأنه أن يجعل الفرد غير محصن؛ مما قد يتسبب فى زعزعة الحياة والاستقرار الأمني، أو السياسي، أو الاقتصادي، والإضرار بالتركيبة الاجتماعية والثقافية، ولنا فى ذلك تجربة مريرة تشهدها مجتمعاتنا بسبب الهتك اللغوي الذي أثمر تلوثا فكريا، حين رُفعت الأقلام وطويت الصحف، وأحضِرت الوسائل غير المبررة التي استوجبت الخرق، وتجاوز المعقول، حتى أصبح كل واحد منا فى حكم قول الشاعر:

لعَمْرُك ما أَدْري وإني لأَوْجَلُ على أينا تغدو المنية أول[1]

فتسرع الفعل الأرعن، والرأي الأهوج، وعمَّ الهوس عقول الكثيرين. ولعله من نافلة القول "إن إمساك قلم بيد، ضمان لإبعاد هذه اليد عن أي وسيلة جارحة" والتي من شأنها أن تؤدي إلى التشدد فى جميع مقاصده، من أي اتجاه كان يسعى إلى زعزعة الاستقرار وإثارة الفتنة.

وفى هذه الحال، نعتقد جازمين أن كل من يحكم على عجز اللغة العربية فى عدم استيعابها مستجدات الحياة والمعارف، فإن نظره قاصر إلى حد بعيد؛ إذ العجز والقصور ليس فى اللغة ولكن فى أصحاب اللغة؛ لأن اللغة بأهلها، تموت بموتهم وتحيا بحياتهم. ونحن الذين نقدم الزَّاد للغة، وليست اللغة هي التي تقدم لنا الزَّاد، ومن ثمّ، فالقضيَّة معقودة على أصحاب اللغة. أضف إلى ذلك أن المسألة هي فى جفاف العقل العربِي وجموده، كونه تعود على التَّعالم، واستسهال الأمور باللامبالاة، والاكتراث بالعلم والمعرفة، وهو ما أَفْقَدَنا الرضا فى كل شيء، ووُضِعْنَا وراء تجاهل مطالب التزود بتكنولوجيا المعلومات والمعارف، حتى ظننا أننا جهلاء فعلا، مع أن الحقيقة غير

ذلك على وجه الإطلاق، بدليل مجرد هجرة أدمغتنا تبدو على محياهم روح الإبداع، وتشرق على وجوههم ابتسامة التفاعل مع المطالب، وتتحرر عقولهم من كل قيد، وتعطي أياديهم كل ما تملك، وتسهم في صنع التحديث الحضاري. فأين هذا من ذاك؟ وما الذي غير الوضع؟ وأسئلة كثيرة تنتظر إجابات وافية.

2. اللسان العربي بين المعمول والمأمول

تواجه اللغة العربية في قضاياها المعاصرة تهديدات عديدة لم تعد قاصرة على عامة الناس، بل أصبحت همَّ المتخصص في دراستها، كالأديب، والإعلامي، والمعلم، والطالب الجامعي،...إلخ. أضف إلى ذلك أنها أصبحت تشغل بال جميع الشرائح الاجتماعية في معاناتها من ازدواجية التعبير، في الغالب الأعم، وتأثير ذلك على مستقبل اللسان العربي الذي أصبح بدوره متخَبِّطا بعشوائية بين اللغة المعمولة، المستعجمة، واللغة المأمولة، المجهولة الهوية، التي نجهل مستقبلها، بعد أن فقدت اللغةُ المحافظةَ على الأدنى من الضوابط، ووصلت إلى الدرك الأسفل من الانحطاط والتراجع.

وتمر الهوية العربية بوجه عام، واللغة العربية على وجه الخصوص، بأزمة خانقة، وردّة في المبادئ، وهي أزمة لم تشهدها الأمة العربية في تاريخها، على النحو الذي يجسده منعطفها الأخير في هذه الآونة، وإذا لم نتدارك الخطأ بالصواب في حينه سوف نسجل وصمة على جبين كل من عاش في هذه المدة، التي يمكن أن نطلق عليها "مرحلة الاستخذاء والخضوع"، أو على كل من أسهم بشكل ما في انهيار مجد الحضارة العربية وإذلالها؛ الأمر الذي انعكس سلبا على براءة براعمنا . في مجتمعاتنا العربية . المورَّثة [بفتح الراء وتشديدها] تبعات اليأس، ومعاوِل هدم الهوية من سياسة مكر الماكرين في الوطن العربي الذين كرَّسوا سياسة الهروب إلى الأمام، والتملص من المسئولية، واستحباب الضلالة على الهدي، فكان من ثمرات ذلك الهوان خلق جيل سمي بجيل الفشل، بعد أن فقد البوصلة، وتحالف مع اليأس، فلم يعد يدري إلا ما هو سلبي، وبعد أن سُدَّت في وجهه الآفاق التي جعلت منه مشحونا ومأزوما، وفاشلا فشلا ذريعا في تحقيق الآمال، على الرغم من انتماء كثير منهم، وولائهم للوطنية.

والحال هذه، لا سبيل إلى الحل إلا بضرورة البدء، والتحليق، وتدارك الأمر، بخطى راسخة، والاحتكام إلى التؤدة والأناة، وهي الدعائم التي يمكن أن نتقي بها التسرع في الحكم على اللغة العربية من بعض الناعقين، والناعرين، والمرتعدين من شدة التخوف من التحكم فيها، كونها في نظرهم لغة التخلف. ولو أنهم أعطوا لفطنة بصيرتهم قليلا من التأمل، ولحاشية إدراكهم نصيبا من المسئولية، وفرصة من التروي، ومَلِيًّا من التفكير بالعودة إلى الهوية؛ لانبعث منهم رأي ثاقب، وعقل راجح، بعد المزيد من الرصانة والتأمل، ولأدركوا أنه مهما تقربوا من الآخر . أيا كان . لن يشفع لهم بانتمائهم إليه، امتثالا لقوله تعالى: { وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} (البقرة آية 120).

إن أخطر ما يدعو إليه هؤلاء الأعمياء هو العمل على استبدال اللغة الأجنبية باللغة العربية فى مسارها الوظيفي فى حياتنا الاجتماعية ضمن المساقات العلمية والإدارية، وفى شتى المؤسسات التعليمية، والمدنية، والاقتصادية، والإعلامية إلى غير ذلك من المسارات التي رأوا فيها المنقذ من الضلال (!..) غير أنه فى اعتقادنا، كما هو الشأن لدى الكثير من الغيورين على هويتنا أن كل من يصر على إبعاد اللغة العربية من خارطة الذاكرة العربية هو قاصر النظر، وعاجز عن خلق المبادرة، وتقاصرت مواقفه، وتضاءلت أنفته، وقلت نخوته، واهتزت مروءته تجاه حضارته وهويته.

لقد اكتوت مجتمعاتنا العربية بحمى الشعارات الجوفاء التي تحمل، إصلاح المنظومة التعليمية، أو الثورات الثقافية، وما شابه من الحملات الادعائية بما ليس يراد للغة العربية أن تتطور، تلك المجاهرات الضاغنة التي استغلها البعض بدافع تنظيم جودة اللغة العربية، حتى أصبحت "**مظهرا دون مخبَرٍ**"، وكلمةَ حق يراد بها باطل، حيث وُظِّف حقُّها فى الاسم، بينما وُظِّف باطلُها فى المسمى الذي كان يراد منه التشويه من قبل بعض الفئات، ومن دون أن تكون لدى الجهة المخلصة لتلك الحملة الكفاية لإنضاج الفكرة، وطرحها بشكل مدروس، أو إيجاد محاولة جادة لوضع اللغة العربية على النهج السليم، المراد لها، كنظير فعلي، ومثيل عملي للغة الأجنبية التي تربعت على عرش التسيير الإداري والساحة الثقافية منذ ما يزيد على عشرات العقود، بعد أن اعتمد أنصار هذه اللغة على السير قدما فى تثبيت هذا التوجه.

وأمام هذه الحال، وفى مواقف عديدة تصب فى التوجه نفسه، كيف السبيل إلى الخروج من عنق الزجاجة، حيث انهيار روح الأمة العربية . بوجه عام . ومحاولة تغييب إرثها الحضاري الزاخر، والحرص على إفقاد ثقافتها الغنية، والسعي إلى طمس هويتها الشامخة. وهل ندرك معنى: أن لغة الآخر إذا استبدلت باللغة الأم وانحدرت إلى الحضيض "أسرعَ إليها الفناء"؟ أم أننا فى حكم مقولة ابن خلدون التي نظرت إلى "أن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب فى ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقادًا فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء [(2)]". أَ هذا هو موقعنا فى الوجود؟ أَ هكذا يراد لنا أن نكون؟ وفى المقابل ما هو الدور الذي قام به نظام تعليم اللغات الأجنبية فى الوطن العربي بوجه عام؟ وما هي النهضة التي قامت بها هذه اللغات بعد أن كرسنا لها الأموال الطائلة؟ وهل حقيقة أن اللغة العربية جامدة؟ وإلى أي مدى نجحنا فى إنقاذها من هذا الجمود؟ وكيف نضمن لها النجاح حتى تغدو لغة مأمولة علميا؟

ومن المؤسف أن نقول: إن آلية التفكير فى الوطن العربي مازالت تتعفر فى وحل العجز المنهجي، وأن القدرة على غربلة الأمور بالنظر العقلي أبعد ما تكون عن التفكير العربي، والإفادة من طرائق البحث العلمي أصْعَبُ فى استثمارها. وبالجملة فإن الذاكرة العربية فى تضادٍ مع الوعي المتشبع بروح العصر، هذا الوعي القادر على تَمَثُّل المستجدات، وتكيفها مع مقومات ثقافته بمكتسباتها الأصيلة، المستنبطة، والمجردة من الذاتية المفرطة، والانفعالات، مع مراعاة كل ما يستوجب التجديد، انطلاقا من أن " كل ما لا يتجدد ينتكس،

وما لا يكون فى حالة ولادة يكون فى حالة موت" [3]. وحتى فى حال إيجاد فئة تسعى إلى تفعيل اللغة العربية، فإنها تحاول العودة بنا إلى الوسائل القديمة، والقفز بنا إلى الوراء، بدعوى تقديس اللغة، كونها توقيفية، من دون امتلاك القدرة على دعائم التطور الحضاري والوسائل التربوية الجديدة، وكأننا بهذه الفئة تستنزف طاقتها رغبة فى تحقيق انتصارات وهمية، ضاربة عرض الحائط الواقع المأمول، المشرئب إلى لغة قادرة على مواجهة التحديات، وليس ذلك على اللغة العربية بعزيز إذا كان القرار حاسما من المعنيين بالأمر، وفى حال أوكدوا العهد بينهم وبين هويتهم، وأوثقوا الصلة مع التطيور بتحولاته العميقة؛ اعتقادا منا أن أي هُوية بمعيارها الثابت . من دون النظر إلى المقدس فيها . تصبح مدعاة للاضطراب، والتراجع، وبما أن "**الجوهر العميق للهوية لا يقلد**" ، فإنها أيضا لم تعد تستشعر الحمية وتعترف بالمرجعة المطبقة، أو أنها حاضرة لفعل التوكيد المطبق، الثابت والمؤتلف بقواعده اليقينية، ولكنها أصبحت تتأفف من " أي أصل مطلق، أو مصدر متعالٍ، لا تحيل إلى خزان ثقافي، وإنما إلى ثقافة حية، أو على النتائج الماضية للثقافة، وإنما على النشاط الذي ينتجها ويستوعبها من خلال مجاوزتها، بل إنها تلتقي مع القدرة على دمج الاختلافات التي تشكل غنى وسمو الإنسان"[4]؛ لذا فإن أي تمسك بهوية اللغة ينبغي أن ينحو إلى كل ما هو منتج، حتى نجعل منها لغة مولِّدة، امتثالا لمقولة" **ما لا يكون فى حالة ولادة يكون فى حالة موت**".

هناك فجوة عميقة بين واقع اللغة العربية المعمول وأفقها المأمول، ولعل الفرق بين الموقفين يكمن فى هذه الفجوة التي هي داء الحقيقة، كونها لا تحمل هدفا، وأن دعاة هذه الفجوة يحملون قناعة مضللة، مفادها أن العجز والتخلف مضروب علينا بوساطة هذه اللغة، وكأننا بأنصار هذه الدعوة المغرضة . التي تحمل مقاصدَ، خلْفها ميول وأهواء . لا يرون أبعد من أنوفهم، بعد أن أعرضوا عن الحق وأقبلوا على الباطل، فتصورا أن الأفكار والثقافات يمكن أن تستورد كما تستورد البضاعة الاستهلاكية، وأن اللغة الأجنبية هي النموذج المثال، ومن دونها نعيش فى تخلف، بينما هم فى حقيقة الأمر، يحلقون خارج السرب، وخارج نسيج النسق الثقافي المتجذر؛ لأن واقع الثقافة أكبر من جَذْر اللغة العربية واستئصالها، وأكبر من اكتساب لغة أجنبية لا تحمل سمات المجتمع، ولا تطبع خواصه. من هنا احتد الصراع بين المتغربين بانتهاجهم مسلك اللغة الأجنبية سبيلا، وبين الواقع المتشبع برصيده اللغوي الأثيل؛ الأمر الذي خلق واقعين متضادين كل منهما يصارع طواحين الهواء .كصراع دون كيشوت Don Quichotte الذي لم يحصد من وراء صراعه أي جدوى، ومع ذلك كان يحاول أن يستمر فى النزال . فتشتت السبل من وراء هذين الواقعين: واقع متغرب فى تشبثه باللغة الأجنبية، وواقع متعرب، فى تمسكه بدفاعه عن اللغة العربية التليدة، وضاع الطرف الثالث، وهو ما يمكن أن نطلق عليه" **فضاء الصوت الصامت**"، وعلى الرغم من صمته نلاحظ أن بصيرته كانت تحمل راية تفعيل اللغة العربية بحسب مستجدات الحياة العصرية فى أدائها، وجعلها قابلة للتحاور مع العلوم والمعارف، وإذا كان هذا الطرف . الثالث . قد وجد صعوبة فى خلق بديل، قوامه تفاعل اللغة العربية مع متطلبات الحياة، فإن الطرفين الأولين ظلا يتعفران فى مرتع حظيرة يتجاذبهما صراع الثيران . سقط فى هذا الصراع مسعى اللغة العربية تحت الحوافر، حيث رأى كل طرف فى موقفه التِمَاعًا، بينما هو صراع قادنا إلى خط الانحدار، فظل الصراع وضل الهدف، وكأن المواجهة بينهما "أشبه بتلك المعارك التي كنا نألفها جميعا فى المراحل المبكرة من أعمارنا، حين يقف أحد الطفلين على عتبة البيت الكبير الذي يسكنه إخوته وأبواه وأجداده وأعمامه، ويواجه طفلا غريبا عن الحي، فيستطيع بصيحة واحدة أن يتسنفر عشيرته كلها لنصرته، على حين يقف الآخر مترددا

في استخدام ما يملك من قدرات؛ لأن الأرض التي تدور حولها المعركة ليست أرضه."[5] وهذا هو حال اللغة الأجنبية أنَّى كانت، شأنها شأن هذا الطفل الغريب عن الحي. وليست اللغة العربية أكثر حظا من اللغة الأجنبية في مثل هذا المقف حين نستنفر لحمايتها، شأن استنفار عشيرة صاحب الحي لنصرته؛ إذ النصرة والحماية لا تأتي بالحَمِيَّة والتعصب والفظاظة، وإنما الاهتمام المتنامي بموضوع كيفية الجودة هو سبيل القصد المنهجي.

3. اللغة العربية وتجليات التحول

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن مكانة اللغة العربية بين لغات العالم، كما يكثر الحديث عن دورها المعرفي في ظل العولمة، وهل حقيقة ما يروج من أن دور اللغة العربية ينحسر في امتداد مسيرتها المعنوية والأخلاقية؟ وإلى أي مدى تكون أقرب إلى العلوم الإنسانية، وأبعد ما تكون من العلوم الدقيقة وتكنولوجيا المعلومات.

ويبدو أن أهمية التساؤل عن مكانة اللغة العربية مشروعة، ومشفوعة، بتحسرنا على دورها، وتلهفنا على مجدها، بعد أن كان لها موقع الصدارة في يوم الفتوحات، بما أتيح لها من دور فاعل في الوجود الحضاري.

ولعل الحديث عن اللغة العربية بهذه الطروحات يقودنا إلى الحديث عن المعرفة بوجه عام، وفي حال إمكان ربط العلاقة بين الدور المنوط بها والرغبة في النهوض بالحركة العلمية، نصل إلى أن اللغة العربية لا تشكل الواجهة الحقيقية لمسار الاكتشافات العلمية، وهذا يجرنا إلى عدم وجود مناخ علمي، ناهيك عن عدم وجود عوامل من شأنها أن تسهم في شيء اسمه "علم" في المعمورة العربية. ولكن، أين الخطأ هنا؟ في اللغة أم في راعي هذه اللغة؟ ذلك أن مرتكزات العلم . أنَّى كان موقعه . بحاجة إلى مبادرة وإلى قرارات مسئولة وحكيمة، وتبقى اللغة هي الوسيلة لتنفيذ ما تستوجبه هذه الأحكام والقرارات لإمكان بلوغ مرامي الكشف العلمي، والوصول إلى تحقيق أهدافه النبيلة، ولا غرو أن يكون هذا عزيز المرام في حال وجود العزيمة، وأملنا في ذلك كبير، ولكن:

على قدر أَهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ[6]

وفي خضم الرهانات المزايِدة [بكسر الياء] للذهاب بلغة ما إلى أبعد من الثانية في اكتشافاتها، أو تقربها من اللغة الإنجليزية التي أصبحت تهيمن على العالم، بوصفها اللغة النموذج على مختلف مستويات الحياة العادية، ناهيك عن مستوى تكنولوجيا المعلومات، في ظل هذا الإشكال أصبح من المسلمات أن اللغة العربية إذا لم تواكب الاكتشافات العلمية فإن استمرار بقائها مرهون بعزيمة أهلها، وبإسهامهم في صنع مبادئ الألفية الثالثة، وعواملها التي بها تقوم، وإن أبقيناها على عهدها، ولم نسهم في تفعيلها بحسب مستجدات العصر، فإن أدوارها ووظائفها ستتضاءل، وتركح إلى ركن عديم الجدوى، وأكثر من ذلك قد نتسبب في تحجيمها، وتلجيمها على الرغم من حمايتها من القرآن، ووقايتها من المرجعية الحضارية، أو تتقاعس همتنا، وتتهاون قدرتنا، وتقصر إرادتنا فنسهم . بوعي أو من دون وعي منا . في موتها. من هذا المنظور يجب التأمل بجدية في مصير لغتنا التي تمثل هويتنا أمام الزحف الجارف، والسيل الكاسح لمظاهر العولمة، حيث أجمع جل الباحثين في مختلف أنحاء العالم أن عولمة الثقافة، وتربع اللغة الإنجليزية على رأس قائمة اللغات

العالمية يعد أكثر خطورة على اللغات الوطنية من الغزو الاستعماري على الأوطان، وذلك من خلال إضعاف هويتها، وسلخها من شخصيتها؛ الأمر الذي ينعكس سلبا على بناء ثقافة الناشئة، وخلخلة هويتهم العربية الإسلامية.

وقد يبدو للرائي أن هناك اهتمامًا متزايدًا من قبل المعنيين، في المؤسسات، بشأن تنمية اللغة العربية في الوطن العربي، غير أن هذا الاهتمام في خلفيته . حسب منطق اللامقول . يبدو هَرَمًا معكوسا، أو في شكل هندسي مخروط، قاعدته مستديرة تعكس الإحاطة المركزية في جوهرها بموضوع الاهتمام بلغتنا (التعريب)، في حين تعكس نهاية هذا المخروط نقطة رأسية ضيقة، ونتيجةً مقصودة، وعديمة الأهمية، ومفرّغة من ثمينها النفيس، ومن معدنها، ووضعت موضع عنق الزجاجة، فأريد لها أن يكون من ثمارها التعريب، وتحويله إلى " جعجعة بلا طحين" ولم نجن من هذا الطحين غير الإحباطات والانتكاسات، ولم نجد ما يشفع لنا غير البكاء على " ليلانا " مُذْ كانت مجد الشعر العربي، ورمز الثقافة العربية التليدة.

لقد بدأت ظاهرة العولمة تؤثر تأثيرا سلبيا في جميع المجالات، بخاصة ما يتعلق بالثقافة في مضامينها وأهدافها، وعلاقة ذلك باللغة القائمة على أجواء هذه الثقافة التي أصبحت ممسوسة بخروقات العولمة، وثقافة ما بعد الحداثة، المموِّهة للحقائق، والمفسِدة للمرجعيات، "وإذا كانت العولمة الاقتصادية واضحة كل الوضوح، فإن العولمة الثقافية . على العكس من ذلك . ليست بنفس وضوح العولمة الاقتصادية. كما أنه إذا كانت العولمة الاقتصادية تبدو للبعض مكتملة على أرض الواقع، والعالم أوشك أن يكون معولما عولمة اقتصادية كاملة، فإن العولمة الثقافية ليست بنفس القدر من الاكتمال"[(7)]، نظرا إلى ما ينتابها من شكوك في محاولة الهيمنة على العالم، كونها موضع الريبة والقلق والاضطراب.

ويعتقد أنصار هوس العولمة من بني جلدتنا . العَقَّة . أن للغة العربية إخفاقات كثيرة منها:

- زوال صفة ثبات اللغة العربية أمام اللغات الحية.
- انتفاء القيمة الجوهرية للغة العربية في ظل العولمة.
- عقم الثقافة العربية لا يشجع على تبني اللغة العربية وإحيائها.
- انقطاع الثقافة العربية عن دوران الركب الحضاري، فانقطع بها حبل التواصل.
- عجز الوعي العربي عن تمثّل روح العصر والدخول في الألفية الثالثة.
- عدم الإسهام في مشروع الحداثة وانبتات التواصل مع ما بعد الحداثة.

أمام كل هذه المثبطات . وغيرها كثير، لكفاية ما ذكرنا . يبدو على أنصار النموذج الغربي، في حَرْفيته، الرغبة منهم في إلحاق ثقافتنا بالغرب، متناسين أن الغرب لا يعترف بغير ذاته، وكل ما يصب في اهتمامه بالآخر لا يخدم إلا مصالحه، ومهما تنطعوا في لغة الآخر، أو تراطنوا، لن يكونوا إلا أداة طيعة لمحاولة تدجين ثقافتنا وترويض وجودنا، وقد أصبح هؤلاء الأنصار بيادق لعبة شطرنج في أيدٍ متقنة. لذلك نعتقد أن سبب مشاكل أمتنا العربية، وتخلفنا، وتراجع لغتنا، وحضارتنا هو تعصب هؤلاء لثقافة الآخر وارتباطهم به ارتباط اللحم بالعظم، سواء في أثناء حقبة وجود المستعمر في أوطاننا، أو عندما خرجوا، بعد تفطنهم أن بقاءهم في هذه الأوطان لا يخدم مصالحهم بالقدر الذي يخدمها وهم خارجه، على نحو ما قاله جاك بيرك jacques berque حين نصح فرنسا:" **إذا أردتم أن تبقوا**

فى الجزائر فاخرجوا منها" ولا أدري هل بمقدور عربي واحد أن يصرف وجهه عن هذه المقولة فى تطابقها مع بعض الشرائح فى مجتمعنا من الذين استقوَوا أبرياء الذمة، سواء فى الجزائر أو فى باقي الدول العربية التي رزحت تحت وطأة حروب الاستعمار، ووهنت بداء الاستغلال.

وإذا أريد للغة العربية أن تكون غريبة فى أوطانها فبفعل حدة المدافعين عن اللغة الأجنبية، بوصفها لغة وظيفية تمارس فى مواضع عملية ميسرة مثل السيرورة العلمية، والاقتصادية، والإدارية، ممارسة فعالة، فى حين هم فى واقع الأمر إنما يدافعون عن ضمان تعزيزهم، والتحكم فى التدبر والتدبير، مفضلين مصالحهم الشخصية على معزة الهوية. من هنا جاء رد فعل الجيل الناشئ . الذي كنا نراهن به على الوعد الناجع . سلبيا من دون وعي منه بإدخال لغة . أو بالأحرى لهجة . ثالثة جعلت من حديث الشارع، وحديث السوق، وحديث عامة الناس، معجما له، يستقي من هذا الحديث المائج فيض اصطلاحات هذه اللغة العفنة التي دبّت بشكل لافت، وجالب للنظر، وداعٍ للحيرة، حتى أصبحت دارجة فى المؤسسات التعليمية، ووسائل الإعلام، واللافتات، والتظاهرات، على الرغم من كونها هجينة وساقطة، وكأن اللغة العربية أصبحت فى خبر كان، وتجاوزتها الأحداث حسب تصور هؤلاء المهجّنة، وبسلوكهم الهجين، ولسانهم المعتل، ولعل فى قول معروف الرصافي ما ينطبق عليهم:

لا تُسابقْ فى حَلْبة العِزِّ ذا العِلـ ـمِ فما للهجين شأنُ الجوادِ

إن التعصب للغة الأجنبية، بدافع مسايرة العولمة ومشتقاتها من الوسائل المدمرة للهوية الوطنية . حيثما كانت . فى جميع أنحاء المعمورة، من شأنه أن يضعف لغتنا التي صمدت فى وجه كل المؤامرات عبر العصور، وإذا كان دعاة التعصب منطلقين من قناعة أن اللغة الأجنبية لغة وظيفية فى مجال التداول السليم للمعرفة والعلوم، فإن الدراسات العلمية، والتجارب الجادة، والمستخلِصة لنتائج نفعية، وقدرة متبصرة، أثبتت أن محركات البحث فى الثورة المعرفية تقبل أي لغة يراد لها الحياة، وأن آلية هذه المحرِّكات فى يد أصحابها، وليست فى اللغة، وفى مثل هذه الحال ماذا يفعل اللسان إذا كانت الجثة هامدة. ولنا فى ذلك أمثلة عديدة .كما سيأتي الحديث تباعا عن بعض اللغات ذات الأقليات، وأثبتت وجودها علما وعملا . مثل اللغة الفنلندية، والدنماركية، والعبرية التي أصبحت بين عشية وضحاها لغة نووية. والقائمة طويلة، عريضة، من اللغات التي تَمكن أصحابها من تطويعها وتفعيلها، كونهم تبنوا سياسة لغوية حكيمة، شأن الحكمة القديمة التي أطلقها الفيلسوف الصيني "كونفوشيوس Confucius" عندما دعا إلى تهذيب اللغة وتنقيحها حتى تسهم فى وضوح الأمور وجلائها، بوصفها مصدر الصواب فى كل شيء، بعد أن سئل عمّا يوّد أن يفعله إذا حكم البلاد. فأطرق كونفشيوس لحظة، ثم قال: **أصّححُ أسماء الأشياء**. وما علاقة تصحيح الأسماء بالحكم الصالح؟! أجاب كونفشيوس: عندما تكون أسماء الأشياء مغلوطة يصبح الكلام غير صحيح، وعندما يصبح الكلام غير صحيح لا يجري العمل بشكل صحيح، وعندما لا يجري العمل بشكل صحيح يُصاب بالضرر كيان المجتمع، وعندما يُصاب بالضرر كيان المجتمع لا تعود العقوبات تناسب الجرائم، وعندما لا تناسب العقوبات الجرائم لا يعرف الناس ما يفعلون[8]. ولعل فى رسالة كونفوشيوس Confucius ما يفيد الأهمية القصوى التي يمكن أن تكون عليه اللغة فى تسمية الأشياء بشكل صحيح عن طريق اللغة، وهذا ليس أمرا هينا فى حق مستقبل أجيالنا وهويتنا، بتفعيل لغتنا بما يستوجب إنتاج المعنى من خلال استثمار مدركات الحياة اليومية، على نحو قابل للتفاعل مع التطور الحاصل فى جميع مجالات المعرفة، بخاصة اللغة الوظيفية؛ ذلك لأنه كلما تنتج اللغة الوظيفية معنى خاصا، كلما تبتعد عما تشحنه اللغة من ضوابط وقوانين

صارمة. ومن هنا، يأتي إنتاج المعنى فى اللغة الوظيفية التي تستمد مقوماتها من الحزم/اللين، أو كما أطلق عليه نيكلاس لومان Niklas Luhmann بـ " الربط الرخو/الربط المتين، من منظور أن الأنساق اللغوية "المستقرة القابلة للحياة لا بد وأن تكون رخوة الارتباط... وبالتالي صنع عبارات ذات معنى".[9]

إننا بحاجة إلى قرارات مسئولة، وشجاعة، وحكيمة، لجعل اللغة العربية ناصية اهتماماتنا، وذوقنا السليم، حتى لا تتأثر باللهجات فى محيط استعمالها، كما نجعل منها لغة تسهم فى توطين العلوم والمعارف الجديدة، وفى هذا ما يشكل مدخلا لثورة فكرية " على اختصار اللغة والبحث اللغوي فى النحو والصرف، واختصار النحو فى الإعراب، وتجريد اللغة من جوهرها الثقافي والمعرفي، وجعلها وعاء فارغا بلا محتوى. واللغة أخطر من أن تترك لعلماء النحو وأساتذته وحدهم، وأكبر من أن تحصر فى هذا الاطار الضيق الذي لا يتناول الغايات والوسائل ومستويات اللغة: فصحى وعامية، واللغة والعلم، واللغة فى عصر العولمة.[10] واللغة بهذا الشكل مسئولية الضمير الحي، والقرار الحكيم، قبل أن تكون مسئولية الجميع، بخاص المدرسة التي ينسب إليها فشل إتقان اللغة على الرغم من تحملها جزءا كبيرا من هذا الفشل.

4. متاهة اللغة/إنتاج الدلالة

لقد أحدثت كثيرٌ من الثورات . قبيل انثناء نهاية القرن العشرين، وبداية الألفية الثالثة . تغييرات جذرية فى تقنية صناعة المعلومة المعرفية، منها على سبيل المثال، لا الحصر، ثورة الاتصال [بما فيها ثورة الميديا Media] والثورة الرقمية، وثورة الجينات، وثورة الشيفرات الوراثية، واختراق الزمن، وابتلاع الضوء، وغزو الفضاء، إلى غير ذلك من الثورات التي تَغيب عنها أي مشروع عربي يسعى إلى الاندماج فى هذه الثورات، أو الإسهام فى بلورتها؛ الأمر الذي جعل الأمة العربية تعيش فى ركح زاوية حادة، فى انتظار زحزحتنا إلى الهامش لنكون خارج الحدَث. وكأننا لا ندري فى أي الأيام نعيش على رأي صلاح عبد الصبور، فى:

هذا اليوم المبوء هو اليوم الثامن

من أيام الأسبوع الخامس

فى الشهر الثالث عشر

وإذا كان مركز العالم يتحول بدراسة محكمة، وبرؤى استراتيجية، إلى هذه الثورات المعرفية، فإننا نأبى الخوض فى تجربة المشاركة فى صنع هذه الثورات، وكأننا لا نشعر بقيمة فعلها المنجز إلا باستهلاك نتائجها، وما تحتويه من مضامين، تصلنا بسهولة ويسر، ومن دون عناء يذكر. وقد ساعد على تأخرنا، فى جميع المجالات، إهمالنا لغتنا، وعدم معرفة الترويج لها لقصور التفكير، والإصابة بمرض التعالم، واهتمام العقل العربي بالشيئية، وذهان السهولة، حينما يبادر إلى حل إشكال صعب؛ فيخرِّبه لعدم معرفته بالطرق السليمة لحل هذه الإشكالية، أو هذيان الاستحالة "وهذان الشكلان يتمثلان فى صورة نوعين من الذهان Psychose، فإما أن يتمثل فى صورة النظر إلى الأشياء على أنها (سهلة)، وهو قائد لا شك إلى نشاط أعمى... وإما أن يأخذ صورة النظر إليها على أنها (مستحيلة)، فيصاب النشاط بالشلل"[11]، وبخاصة عندما نرى الأمور مستحيلة، ونقف أمامها عاجزين، وهي فى الحقيقة غير ذلك؛ لعدم تمكننا من أدائها؛

ولفقدنا الوسائل التعبيرية والمنهجية، والكفاية القادرة على حلها. أضف إلى ذلك اعتماد التجارب الفارغة من أي محتوى فكري. وسواء مع ذهان السهولة فى الإقبال على التكرار، أو مع ذهان الاستحالة الذي يقود إلى العقم، تفتقد هويتنا اللغوية مكانتها الحضارية.

وفى خضم هذه الأجواء المتعفرة لا سبيل إلى النهوض باللغة العربية ما لم نحسم طرق تدريسها، والاهتمام بها فى جميع المؤسسات حتى تصبح آهلة للتعايش مع الألفية الثالثة، وتصبح قابلة للصرف مع الثورات المعرفية والرقائق الإلكترونية، والابتعاد بها عن الانفصال الفكري المفروض عنا، ومنا، فى الخارطة العربية، وجعل الخطاب سائدا فى جميع مرامي الحياة باللغة الأجنبية، من أدنى مستويات التوظيف إلى أعلى هرمه. ولعل هذا ما جعلنا محاصرين بقيود لغات الآخر، وذلك نتيجة تراكم قرون من الابتعاد عن وظيفة اللغة العربية والمعرفة النافعة، والعمل الجاد؛ لذلك أصبحت الأمة العربية .كما جاء فى رأي مالك بن نبي . "كالفارس الذي أفلت الركاب من بين قدميه ولم يسترده بعد، فهو يحاول أن يستعيد توازنه.[12]

والحقيقة أن التحديات التي تعيشها اللغة العربية لا تقتصر على كيانها فحسب، بقدر ما تمس، هذه التحديات، كيان المجتمع العربي برمته، خاصة ونحن نعيش حالة الشغف بالاقتداء بالآخر [الغالب] فى جميع مواصفاته، متناسين مقولة ابن خلدون:"أن الأمة إذا غلبت، وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفناء"[13]. وكذلك بعد أن يفقد المجتمع فعاليته عندما تَنبتُّ الصلة بينه وبين لغته، وبين أفكاره المطبوعة وأفكاره الموضوعة.

ومن هذا المنظور استوجب الأمر منا ترسيخ حب لغة أحلامنا، وارتباط روحنا بها، وهذا فى تقديرنا أهم عامل، والأكثر أهمية، فى بناء شخصيتنا. ولكن، كيف السبيل إلى ذلك؟ ثم كيف السبيل إلى تطوير اللغة العربية فى ظل اكتساح جرَّافة اللغة الإنجليزية بقية اللغات التي يراد لها الاستخذاء؟ وكيف يرضى ذووها الخنوع والذل، ويخضعون للآخر وإضعاف شخصيتهم؟ وقبل ذلك ما هي محركات تفعيل اللغة العربية فى ظل العولمة، وتكنولوجيا المعلومات؟

لعل أهم محرك هو التحصيل المعرفي، والتحصين الثقافي المترامي، مع العلم أن المعرفة تضمن للإنسان مجموعة محركات، من أهمها:

- الزاد العلمي، وكل ما يُستخلَص من أنواع المعرفة.
- قدرة الاستيعاب.
- اكتساب الخبرة، من عوائد المهارة اللغوية، ومن الاستنتاج والتعمق فى التحليل، والتبصر فى التفكير.
- القدرة على التركيز.
- رفع المستوى السلوكي والأخلاقي الذي من شأنه أن يسهم فى التفرقة بين الصواب والخطأ.
- تعزيز المهارة.
- تنمية القدرة الذهنية.
- ارتفاع مستوى أداب الجودة.

- تثمين القيمة، كونها السبيل إلى معرفة الصالح من الطالح، ومن يضلل المعرفة فلا سبيل له إلا العنف، وهو الحاصل فى حواراتنا العقيمة، وفى نسقنا الثقافي بوجه عام.

ومن الثوابت فى الدراسات العلمية أن أيّ معالجة للتنمية البشرية لا تفلح من دون التعامل معها ضمن سياق تفتح عقول الناشئة على العمل المعرفي. وبنور المعرفة، من مهارة اللغة، يحصل منه نور اليقين، وبحصول ذلك النور تتضح الحقائق والأمور، أضف إلى ذلك أن إثارة الوعي بدور اللغة، وما ينتج من ثمارها، تُمكِّن القوةَ المتضمَّنةَ فى القول. وبسلامة اللسان نضمن، نسبيا، العدل الاجتماعي، ونشر القيم الفاضلة، وكثرة طلب المودة.

كل ذلك الضرر ناجم من أن إهمال اللغة، وقلة الاطلاع، وانحسار القراءة، والتشبع بالمعلومة المسمومة، يؤدي بالضرورة إلى انغلاق الأفق وانسداد الرؤية، وحصر البصيرة فى خانة ضيقة بتوجيه من الجهل إلى العنف، وكل ما يدور فى فلكه من ارتدادات جارحة. ولعل المحصلة من وراء هذا الإهمال أننا جعلنا من براعمنا عصافير خشبية لا تقوى على الطيران؛ لأن التلميذ فى مدارسنا لم يزود باللغة التي تمكنه من التحصيل العلمي والتحصين الثقافي، والتحليق فى الإبداع، والإمساك بالريشة الفنية، عوض الإمساك بالعصا . الآلة . الفتاكة؛ لذا فهو . بحسب رأي أحد الباحثين . أشبه ما يكون بالطائر الخشبي العاجز عن الحركة، أو الطائر الجارح المسلوب الروح والإرادة. فما الذي حول طيورنا الجميلة إلى طيور خشبية، أو طيور جارحة؟

وانطلاقا من أن الاهتمام باللغة فى أي مجتمع هو اهتمام بالذات فى تمكين هويتها من الاستمرار فى بناء الحضارة، فإن أي لغة تكون لديها القابلية لأي مسعى يحرك ذويها للتساؤل عن إثرائها، بالمستجدات الضرورية؛ "لأن اللغة هي مسكن الكائن" حسب رأي هيدغر Martin Heidegger ، ويمكن أن نستدل على هذا برأي أحد الغربيين من الذين ينظرون إلى اللغة العربية على أنها مرآة مصقولة بالمرجعية الثقافية، ومجلوة بالتقدير من خلال ما قاله دومينيك شوفالييه Dominique Chevallier من أن اللغة العربية فى منظور ذويها ترتقي إلى مستوى التقديس؛ لأنها مازالت بقيمها الروحية، وعلى الرغم من أن هذه اللغة "تكيفت" بأشكال مختلفة، مع تحديات "الحداثة" فى القرن العشرين من خلال الأنماط الجديدة للتربية، وللتواصل الإيديولوجي... فإنها ظلت، مع ذلك، الضامنة لاستمرارية المثل الإسلامية وللرسالة الإلهية، بل إنها تمثل ذاكرة تمنح للفرد عناصر الوعي للتعبير عن هويته قياسا إلى الجماعة التي يتحرك بداخلها، وإلى إمكانية التسامي عن هذا الاجتماعي داخل الإسلام بوصفه دينا كونيا"[(14)].

إن الهدف **التربوي /التعليمي** بحاجة إلى رؤية استراتيجية حكيمة ترعى مصلحة الهوية قبل مصلحة الحياة اليومية الاستهلاكية فى جميع مكوناتها؛ لأن هذا الهدف . المتبع حتى الآن . لا يقوم على برهنة الشيء بمسببه، ولا يُخضِع المتلقي للملاحظة التحليلية، أو الداعية إلى التبصر بالقدر الكافي، وإذا كنا نعترف بجهود القائمين على منظومتنا التربوية، وإذا كنا نقر بصعوبة التحكم فى العدد المتزايد فى الصفوف، وإذا كنا نعترف بوجود خطط منهجية جيدة، وإذا كنا نعترف بهذا وغيره كثير من جهود المعنيين بالأمر، فإن ذلك لا يكفي ما لم تحصن الجهود بطرق منهجية، أكثر صرامة، أو كما قال الفيلسوف ديكارت René Descartes :"لا يكفي أن يكون لديك فكر جيد، ولكن المهم أن يطبق جيدا".

فكيف لنا أن نطبق فكرنا جيدا؟ وقبل ذلك، كيف لنا أن نقرب لغتنا إلى هذا الفكر الجيد، والإبداع العلمي، الكشفي؟

منذ البداية نعترف أن لغتنا العربية تصارع المواراة، وتعارك الأشباح، وتقاوم التحدي، وتجابه الظُّلمة التي تتخفى بتلاوين وأصقاع من صراعات، وتحولات سوداوية المسوغات فى نتائجها. وهذا ما لم يستسغه الخطاب العربي الغيور على لغته العربية التي تمثله، من منظور أن تلك المسوغات فتحت مجراها على التحايل، والتشويه، والزيف. والحال أن اللغة العربية فى ظل صراعات دون كيشوت Don Quichotte بحاجة إلى سياسة رشيدة، وقرار حازم لاتخاذ ما يلزم، حتى نرقى بلغتنا إلى مصاف الرقي الحضاري. وما لم نحل مشكل لغتنا المعبرة عن هويتنا لن نصل مهما سلكنا من سبل.

ولعل ما يدعو إلى الحيرة والدهشة، وهذا ما ننتظر الإجابة عنه من الحاقدين على اللغة العربية، هو: كيف تناغمت بعض اللغات التي كانت ميتة مع متطلبات العصر، مثل اللغة الأردية، واللغة التركية التي استُبدِلت حروفها فى عهد أتاتورك [1881 . 1938] الذي أراد لها أن تنافس اللغة الأوروبية، أو تلك اللغات التي انتعشت بذويها، ونهضوا بها، ولنا فى ذلك أمثلة كثيرة تفوق كل حصر نذكر منها:

- اللغة الصينية المتناغمة مع متطلبات العولمة، وأصبحت تهدد الغرب فى عقر داره بمنتوجاتها المنافسة لصناعة الغرب المتميزة.
- اللغة الأردية التي أصبح لها تأثير على اللغة الهندية على عراقتها. كما أن حروفها مقتبسة من الحرف العربي وهي اللغة الرسمية فى باكستان بمسوغاتها النووية.
- اللغة الكورية المسماة بـ " الهانغول Le hangeul " ويعود تأسيس حروفها إلى العالم اللغوي " جو شيج يونج" (1913)، ولها ما لها فى الساحة التكنولوجية اليوم.
- اللغة الفارسية التي أصبحت لغة نووية، وتناور الغرب فى تقنياته العلمية، بعد أن باتت تقض مضجعه وتؤرقه، وتهدد العالم فى نظر الغرب.
- اللغة الفنلندية التي يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين نسمة، وجعلوا من لغتهم لغة صناعية، حتى أصبح يتباهى كل فرد فى العالم باقتنائه هاتف نوكيا Nokia المصنع فى فنلندا Finland ، ناهيك عن صناعات متنوعة تُستخلَص من هذه اللغة، على الرغم من قلة المتحدثين بها.
- اللغة الدانماركية: والتي لا يزيد سكانها على خمسة ملايين نسمة، تميزوا بصناعة الألبان ومشتقاتها التي لا تستغني عنها أي مائدة فى العالم سواء أكانت عالية الحسب والمقام، أو قليلة الخير وميسورة الحال.
- اللغة العبرية: وهي مثال بيِّن وواضح، ولا أحد يتغافل عن تاريخ إحيائها، ومدى دورها فى التكنولوجية النووية، ويحضرني هنا قول " إفي لارنر"، الناطق باسم عضو الكنيست:" لا يوجد عندي أي شك بأن المجتمع الاسرائيلي إذا أراد الحفاظ على طابعه اليهودي عليه أن يعزز منزلة اللغة العبرية ". وأكد "لارنر" لوكالة فرانس برس France-Presse:" كمجتمع ودولة، فإن اللغة العبرية تشكل استمرارية لسلالة أجيال بدأت قبل الآلاف من السنين".[15] ومن دوافع غيرة اليهود على لغتهم ما ذكرته صحيفة "معاريف" الناطقة بالعبرية:"أن الكنيست وافق مبدئيا على مشروع قانون يطالب بالكتابة على الواجهات، أو لافتات المتاجر، باللغة العبرية الواضحة، وإلا فإن الرخص ستسحب من المتاجر والمطاعم وأصحاب المؤسسات التي تخالف هذه التعليمات". وأضافت "معاريف": أن" الكنيست يعارض كتابة اللافتات بالإنجليزية "، ويهدد بسحب تراخيص الأعمال المخالفة"[16].

أمام هذه الصور المعبرة، والدالة عن قتامة الوضع عندنا فى الوطن العربي، أ ليس من حق براعمنا أن تحمِّل مسئولي الوطن العربي وزر ما آلت إليه العربية، ومن تضليل مكانتها، والدور المنوط بها؟ ثم، أين هو دور المؤسسات المدنية منذ أنشئت، وحيثما كانت؟ أم أن دورها منحصر فقط فى تعزيز مكانتها فى البحث عن المناصب العليا؟ متناسية دورها فى الحفاظ على ثوابت الأمة، واللغة الوطنية هي أحد هذه الثوابت المعبرة عن هويتنا. وإذا كانت قناعتهم بأن اللغة الأجنبية هي الحل الأمثل لمستقبلنا، فما الذي فعلوه منذ كانوا يدافعون عنها؟ وماذا قدمت هذه اللغة للمستقبل الذي كان قبل خمسين سنة أَوَانًا لمستقبل مشرئب؟ أم أن لكل شيء أوانه المخيَّب؟ ومتى يحين هذا الأوان؟ والحبل على الجرار فى انتظار هذا الأوان الزاهي الذي يرزح تحت رحمة حرف السين للتسويف الموعود، وتعهداته التي قد تأتي أو لا تأتي، بعد أن كان آباؤنا ينظرون إلى المستقبل وكأنه فى متناولهم، أو على الأقل فى متناول أبنائهم. فلا التسويف أجاد [أي أتى بالجديد]، ولا الأوان أفاد، ولا المستقبل ازدهر، ولا اشرأبت إليه الآفاق، ولا أفاد شيء فى أوانه، ولا فى غير أوانه، وثُّنا وتاهت بنا السبل بين الأوان والهوان، فأصبحنا فى موضع هوْنٍ على هوْنٍ، وليتها دار لقمان بقيت على حالها، بل على العكس من ذلك أُرِيدَ لنا أن نرتقي إلى الصعود نحو الأسفل بكل جدارة، ومن دون استحقاق، بوصفنا لا نستحق ما فعله الجهلاء باللغة العربية، وجهابذة اللغة الأجنبية الذين رأوا فى ضالتهم سبيلا، ولا يعرفون أنهم فى ضلال من أمرهم المشين.

وإذا كانوا يتذرعون بنماء اللغة الأجنبية بوصفها الحل الأمثل، فالأمر مردود عليهم، بوصف هذه اللغات الحية واكتسابها أمرا يعزز مكانة اللغة الوطنية، وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها، وليس فى ذلك ما يهدد هويتنا التي تصونها لغتنا العربية عندما نتسلح بمكوناتها وضوابطها، شريطة أن تتداول اللغة الوطنية وفق الأسس العلمية، والمنظور الاستراتيجي الوطني، حتى نتمكن من تحصين الذات من كل المقومات، ونجعل منها لغة تسوّق منتوجاتنا العلمية والفكرية والثقافية؛ ولأن الثقافة عامل مهم لكل الشعوب والأمم، فلا يمكن أن تحقق غايتها فى غياب الاهتمام باللغة الوطنية، وليس غريبا أن نقول: من لا يملك آلية التمكن من لغته لا يمكن امتلاك ثقافة تؤكد وجوده فى الحياة على مر العصور. وفقدان وعي الهوية، أو الانتماء، دليل على الارتماء فى قاع ثقافة الآخر، والنيل من ثقافة الذات، سواء عبر مسار المكون الحضاري، أو عبر أنساق العلامة المركبة من عنصرين(دال اللغة) فيما يسميه جاك لاكان Jacque Lacan بالكلمات، و(مدلول الأفكار) "فعندما تنهار السلسلة الدالة، عندها تصيبنا شيزوفرينيا Schizophrenia على شكل خلط بين المدلولات المنفصلة وغير المترابطة، وإذا جرى تركيب الهوية الشخصية عبر خليط مؤقت بين الماضي والمستقبل والحاضر، وإذا ذهبت الجملة فى المسار نفسه، فالعجز آنذاك عن ربط الماضي والحاضر والمستقبل فى الجملة يجلب معه عجزًا مشابهًا فى ربط الماضي والحاضر والمستقبل فيما خص وحدتنا البيولوجية الخاصة وحياتنا النفسية... أما تأثير الانهيار فى سلسلة الدلالات فسيكون تحويل تجربتنا العملية إلى سلسلة من أشكال الحاضر المجردة وغير المترابطة".[17]

وإذا كان الأمر كذلك، كيف لنا أن نعطي معنى مقبولا، ومقنعا لهويتنا اللغوية على وجه التحديد؟ وكيف تكون الهوية نسقا ثقافيا لحياتنا اليومية؟ وقبل ذلك كيف نوفق بين ثوابت هويتنا، وتغير الوعي الكوني؟. صحيح أن هذا النمط من الحياة الجديدة أخفى الكثير من ثوابت الأصل، غير أن هذا لا يمنع من أن للأصل مصيرا حتميا فى حياة الإنسان على مدار الحياة الكونية ينبغي المحافظة عليه؛ " لأن أنساق الهوية بحسب تعبير كاسيلز Kastells هي محرك دينامي فى تشكيل المجتمع، وبأنها عملية بناء المعنى على أساس خاصية ثقافية، أو مجموعة مرتبطة من الخصائص الثقافية، تحظى بأولوية على مصادر المعنى... وأن من يبني الهوية الجماعية . وأيا كانت الأغراض . يقرر بدرجة كبيرة المحتوى الرمزي لهذه الهوية ومعناها لأولئك الذين يتوحدون معها"[18]، بخاصة مع التطور المعلوماتي

بفرضياته الجديدة والمتوحدة مع أنماط ثقافة الأجيال القادمة، المرتبط بالمجتمع الشبكي الذي أحدث رجة شملت القيم والمفاهيم بجميع أشكالها، بعدما اتخذت وسائل هذا المجتمع من تقنيات عالية الجودة أبعادا أساسها الانتقال مما هو قار إلى ما هو مفكك، على النحو الذي ترمي إليه أفكار ما بعد الحداثة.

وباقتحام النسق الثقافي الرقمي بوظيفة المجال السايبري Cyberspace، يحاول البراديغم Paradigme الجديد أن يزيح . نسبيا . عن مدلول الهوية، بمكوناتها، الدور التقليدي الذي كان يتحكم في توجيه الناس، وفي المقابل أصبح يمنح الفرد نسقا خاصا يقوم على حرية الذات في التعامل مع النزعة الفردانية Individualité التي تماثل تعاملها مع محركات تصفح الروابط الإلكترونية.

الهوامش:

---

(1) معن بن أوس المزني: **الديوان**، تحقيق: نوري حمودي القيسي (وآخر) مطبعة دار الجاحظ، بغداد، 1977، ص 93

(2) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: **المقدمة**، (الفصل الثالث والعشرون): تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، لجنة البيان العربي، 1965، ص 164.

(3) إدغار موران: **النهج . إنسانية البشرية/هوية البشرية** ، ص 343

(4) Abou Selim, **L'identité culturelle, Relations interethniques et problèmes**.. d'acculturation, Paris: Anthropos 1986,p14

(5) ينظر، عبد العظيم الديب: **التبعية الثقافية، وسائلها ومظاهرها**، ضمن كتاب، **ندوة الثقافة العربية الواقع وآفاق المستقبل**، جامعة قطر، 1993، ص 338.

(6) ينظر، ناصيف اليازجي: **شرح ديوان المتنبي**، بيروت، دار صادر، المجلد الأول، د.ت، ص 385.

(7) عبد الخالق عبد الله: **العولمة . جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها**، عالم الفكر 28/2 أكتوبر، ديسمبر، 1999، ص 74.

(8) ينظر، الرابط: http://www.almosul.org

(9) نيكلاس لومان: **مدخل إلى نظرية الأنساق**، ترجمة يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، ط1، 2010، ص 280

(10) فاروق شوشة: **إنقاذ اللغة**.. **إنقاذ الهوية**. جريدة الأهرام االعدد43532، 12 فراير 2006.

(11) مالك بن نبي: **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط1، 1986، ص 88

(12) مالك بن نبي: **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة: بسام بركة(وآخر)، دار الفكر، ط 1 ، 1988، ص 217 .

(13) ابن خلدون: **المقدمة**، الفصل الرابع والعشرون، ص 165.

(14) Dominique Chevallier, **Les arabes du massage a l`histoire**, Edition Fayard, Paris 1995, p51

(15) علي الطالقاني: **في دائرة الاستهداف... اللغة العربية مخاوف من اندثارها**، الرابط: www.annabaa.org/

(16) المرجع السابق.

(17) ديفيد هارفي: **حالة ما بعد الحداثة . بحث في أصول التغيير الثقافي**، ص 77

(18) ينظر، السيد ياسين: **شبكة الحضارة المعرفية، من المجتمع الواقعي إلى العالم الافتراضي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2009، ص 294، 299.